سبع مسائل في النبوّة والإمامة

حجّة الإسلام هادي مروي[١]

الملخّص: يتحدّث المؤلّف من زوايا عدّة في باب النبوّة والإمامة.. قصور البشر عن كسب الفيض الإلهي.. المستقلّات العقليّة، مبنى قبول الدين.. تفاوت درجات الناس.. برهان إمكان الأشرف.. العبوديّة الكاملة والعبد الكامل.. النسبة بين العقل والنقل في هذا المجال.

جدير بالذكر؛ أنّ هذا المقال مقتبس من دروس ألقاها الشيخ محمود الحلبي الخراساني في سنة (١٣٨٣) قمريّة.

الكلمات المفتاحيّة: النبوّة؛ الإمامة؛ المستقلّات العقليّة؛ العبوديّة التامّة؛ إمكان الأشرف؛ النبوّة والإمامة؛ البراهين العقليّة؛ الحلبي، محمود؛ صلة العقل والنقل.

إشارة:

١ – خلّف العالم الزاهد المرحوم حجّة الإسلام والمسلمين هادي مروي خراساني عدّة كتب وملزمات مخطوطة، بعض منها عبارة عن تقريرات لخطب ودروس العالم الواعظ الخطيب الفذّ المرحوم حجّة الإسلام والمسلمين الشيخ محمود تولّائي خراساني (الحلبي)[٢].

---

١. عالم و محقق فى حوزة طهران العلميّة.

٢. ولد الشيخ هادى المروي في سنة ١٣٢٥ الشمسية في مدينة مشهد المقدسة من والدين صالحين ورعين، و انضمّ إلى الدراسة الحوزويّة في أيّام شبابه. وبعد إتمام دراسته المقدّمات في النظام التربويّ الخاصّ بتلك الحقبة. ثمّ تلقّى دروس المقدّمات و الأدبيّات و المنطق على أساتذة كبار كالأديب النيشابوري الثاني. سافر إلى مدينة قم المقدّسة في سنة ١٣٤٣ ش. لمواصلة دراسة العلوم الدينيّة و أتمّ فيها مرحلة سطوح المقدّمات و العالية، و انتفع بها من أعلامها كالشيخ فاضل اللنكراني و السيد السلطاني و الشيخ المشكيني و الخزعلي، مع أنّ أهمّ أساتذته آية الله الكشميري. و فضلاً عن خدماته الاجتماعية و النّشاط على المستوى الحقوقي و القضائي، انشغل المرحوم المرويّ بالتدريس في جامعة الإمام الصادق عليه السلام و في جامعة طهران و جامعة آزاد الاسلاميّة و مدرسة سپهسالار (المسمّى بالشهيد المطهّرى حالياً). و توفي في مدينة مشهد المقدّسة في ١٨ شهريور ١٣٨٥ ش. و دفن إلى جوار مرقد الإمام الرّضا عليه السلام. (الطباطبائي، السيد محمد مهدي و الزملاء، علماء مدينة الأخلاق، الطهران، منظمة الثّقافة و الفنّ التابع لبلدية طهران، الطبعة الثانية، ١٣٨٦ ش.، ص ١٨٢ - ٢٠٢).

ولد المرحوم الشيخ محمود تولّائي في الثالث عشر من جمادى الأولى سنة ١٣١٨ الهجريّة في مدينة مشهد المقدّسة. تعلّم الأدب و العربيّة على الأديب النيشابوري الأول و دروس السطوح على الشيخ محمد النهاوندي و الميرزا أحمد الكفائي و الفقه على آية الله السيد حسين الطباطبائي القمي، فى ما كان أستاذه في الأخلاق الشيخ حسن على الإصفهانيّ و في المعارف الإلهية آية الله الميرزا محمد مهدى الغروي الإصفهاني. و بعد رحلة طويلة في الدراسة و التدريس والإفادة طيلة قرن كامل، توفي رحمه الله في يوم الجمعة ١٧ شهر رمضان ١٤١٨ الهجريّة المطابق ٢٦ دي ١٣٧٦ الشمسيّة و دفن في جوار مرقد الشيخ الصدوق في رى جنوب طهران. (جعفريان، رسول. الرسائل الحجابيّة، قم: دليل ما، الطبعة الثانية، ١٣٨٠ ش. ص ١٠٨٩- ١٠٩٠).

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2026-06-10]

ولطالما شجّع المرحوم مروي أثناء حياته العاملين في المجلّة الفصليّة (سفينة) لنشر تراثه المخطوط - ومنه الكتب والملازم المذكورة - ولكن وفاته المفاجئة، لم تفسح المجال لتحقّق ذلك.. وبعد ذلك؛ سلّمتنا عائلته الموقّرة ذلك التراث، فتمّ نشره ضمن سلسلة مقالات ودراسات مجلّة (السفينة) الفصليّة ضمن الأعداد (١٧ و٢١ و٢٣) وقد نشرت أقسام من تلك الملازم بشكل محرّر مكتوب.

٢ - بعد ترحيب فريق من خبراء الحوزة والجامعة.. أدناه قسم آخر من تلكم الدفاتر والملازم بهيئة مكتوبة.. وهذا القسم يشمل سبع مسائل في باب النبوّة والإمامة؛ التي يشوبها التشابه والسنخيّة، وذلك أنّ النبيّ ووصيّه حجّتان منصوبان من قبل الله تعالى، وإنّ جميع البحوث المتعلّقة بذلك واحدة من هذه الزاوية.

٣ - نظّمت هذه المباحث على أساس من العلاقة المتينة الثابتة بين العقل والنقل. وطبعاً إنّ خصوصيّة الشفاهيّة والمنبريّة الخاصّة بهذه البحوث ومقتضى الأجواء ومخاطبي ستين عاماً مضت (عام ١٣٨٣ قمري - وهي حقبة فترة إلقاء تلكم البحوث والمطالب) بحيث كانت تطرح أحياناً بشكل موجز للغاية، أو يكتفي بإيراد نموذجين أو ثلاثة ضمن الوثائق النقليّة (الآيات والروايات ذات الصلة).. وهذا الإيجاز متوفّر بصورة مكتوبة، فيما التفصيل موكول إلى مصادر أخرى.

٤ - والقسم الآخر من البحوث كانت في ملزمة مخطوطة غير منشورة للمرحوم مروي، وهي تشمل نصف تلك الملزمة، وفيها مطالب في باب المهدويّة، وهي موكولة إلى مقالة أخرى.

على أمل أن يرفدنا الخبراء بآرائهم في باب هذا المقال.

* * *

١ - قصور البشر في اكتساب الفيض الإلهي

للبشر قصور في اكتساب الفيض الإلهي، وهذا القصور يشهد عليه عدّة جماعات من المخلوقين:

الأولى: الملائكة الذين قالوا لله تعالى: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ**﴾ [البقرة / ٣٠] حين قال الله سبحانه لهم: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ [البقرة / ٣٠]. قد اعتبروا البشر مفسداً سافكاً للدماء.. والحال أنّ أولاد آدم الصالحين لو لم يكونوا كالأنبياء والأئمّة، لكان الحقّ

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2026-06-10]

مع الملائكة.. إذ أنّ منتهى وحشيّة الذئاب الفتك في بعض الخراف إذا ما هجمت، ولكنّ البشر يقصف بعضهم بعضاً، ويقتلون الآلاف المؤلّفة في لحظة واحدة.. ومن هنا؛ قال سبحانه وتعالى: ﴿**أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ**..﴾ [الأعراف / ١٧٩] إنّ اللّطف الإلهي بالبشر لأجل الصالحين منهم، كما أنّ البستاني يسقي الأعشاب الزائدة في البستان لأجل أزهاره الجميلة، كما أنّ البعوض تستنشق الهواء الطيّب الذي تستنشقه النحلات في حديقة واحدة.. ومن هنا؛ لو لم يكن الصالحون والطاهرون يعيشون بين البشر، لصدق قول الملائكة ومدّعاهم.

الثاني: الحيوانات التي منها (النمل) تحدّثت لسليمان النبيّ عليه السلام، فقالت حين مرّ بها سليمان وجنوده. قالت إحدى النملات، وكان لها كما يبدو مكانة رياديّة ومعرفيّة بين النملات، قالت للأخريات الكثيرات: ﴿**ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ**﴾ [النمل / ١٨].

قال الإمام عليه السلام: استدعى سليمان النملة وسألها: لم قلتِ ما قلتِ؟ وهل كنت رأيتِ أذىً منّي ومن جنودي من قبل؟ فأجابت النملة بالنفي، فقال النبيّ سليمان: فلِمَ قلتِ ذلك؟ قالت: رأيت لو أنّ النمل رأوا من جلال وجاه جنودك، كفرت بالنعمة! فأحببت أن يدخلوا مساكنهم. [الحويزي، ج ٣، ص ٨٢].

والحديث بخصوص الناس صادق تماماً، فالإنسان - غالباً - ما أن يرى من يظنّ أنّه أكثر منه مالاً وإمكانات، يسقط في الكفران وعدم الشكر، وإنّ الإيغال في المادّيّات يُبعد ابنَ آدم عن المسائل الروحيّة والمعنويّة ويعوقه عنها.

إنّ هذين الفريقين شاهدان، أحدهما أسمى والآخر أدون من الإنسان، وهما يشهدان عليه بما تقدّم.. ثمّ إنّ الابتهاج والفرح - بمعنى الغرور - بالعلوم البشريّة ينأى بنا عن إدراك الحقائق المعنويّة، والحال أنّه لم يكن ينبغي لنا الاعتماد المطلق عليها مع ما يمكن الاستفادة والانتفاع منها وبها.

إنّ سفرة واحدة لها بُعد معنوي ومادّيّ.. وفيما يرتبط بالبعد المادّيّ، فإنّه لا تفاوت بين أن تستغرق السفرة شهراً أو يوماً.. ولكنّ البُعد المعنوي هو الذي يجب أن يُدرك ويستوعب.. وعلى أيّ حال؛ فإنّ الجهل والعجز عن إدراك الحقائق طالما تحدّث عنه وأقرّ به علماء البشر، الشرقيّون

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2026-06-10]

والغربيّون، القدماء والمتأخّرون وبمختلف الألسن والأساليب.

فالبشر - بحدود ما يرتبط بالعلم والتجربة والإدراك الخاصّ بهم - لم يجدوا طريقاً ذاتياً للخروج والتخلّص من هذا القصور، إلّا ما كان عبر اليد الإلهيّة، من السماء التي تأخذ بيد البشر وتسمو به إلى المعالي.. واليد الإلهيّة هذي؛ تتمثّل في السفير والخليفة الإلهيّ في الأرض، إذ تارة ما يكون نبيّاً أو إماماً.. وسفراء الوحي هؤلاء جاؤوا بالحقائق ذات المنشأ الإلهي للبشر بما يتواءم مع الإرادة البشريّة وطبيعة فهمهم وإدراكهم المحدود.. وهكذا تتوفّر إمكانيّة هدايتهم بحدّ ذاتهم.

٢ - المستقلّات العقليّة؛ أساس قبول الدين[١]

المستقلّات العقليّة أصول بديهيّة يقبلها جميع عقلاء العالم إذا ما اعتمدوا حكم العقل، بغضّ النظر عن اتّباعهم هذا الدين أو ذاك، بل إنّهم لا تفاوت بينهم - فيما يرتبط بقبول المستقلّ العقليّ - قبل ان ينضمّوا إلى دين ما.

فمثلاً؛ هذا الأصلان القائلان: «ظلم الآخرين قبيح» و «شكر المنعم لازم» بغضّ النظر عن مصداق الظلم ومصداق الشكر، فانهما موارد ومحطّ قبول جميع العقلاء، ومَن لا يقبل هذا الأصل البديهيّ يُعدُّ غريباً عن العقل... وبعد هذه المقدّمة نقول:

كلّ مذهب تتطابق أصوله مع المستقلّات العقليّة؛ هو مذهب مقبول. فإن تضمّن أو نادى بمخالفة المستقلّات العقليّة، فإنّ هذه المخالفة ستعدّ دليلاً على بطلانه، وتشير إلى أنّ مبادئه صناعة بشريّة وليست من جانب الله تعالى.

ودليل هذا المدّعى هو أنّ العقل والسفير الإلهي (النبيّ والإمام) حجّتانِ إلهيّتان على الناس.. فالعقل سفير باطني، والنبيّ سفير خارجي. فالعقل لا يسعه القبول بأن شخصين رسولان لمرسل حكيم، فيما أقوالهما متناقضتان.. فالله الحكيم لم يجعل تناقضاً وتضادّاً بين دعوة العقل والأنبياء، وعليه؛ فإنّ اختبار صدق مدّعٍ للنبوّة أو الإمامة في مطابقة الأصول الكلّيّة لكلامه والمستقلّات والمحكمات العقليّة.

ترى «ما هو العقل؟» العقل جوهرة نوريّة الذات، والأنبياء قد اعتمدوها في الهداية والإرشاد والتذكير، فالعقل نعرفه بالعقل ونعي آثاره وخواصّه.. وهذه الجوهرة النوريّة الذات حقيقةٌ تميّز القبيح من الحسن والحسن من القبيح.

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2026-06-10]

فكلّنا كنّا صغاراً ذات يوم، و لم نكن نعي قبح بعض الأفعال - مثل كشف العورة.- ولكن فيما تلى من الأيام وقد صرنا كباراً فهمنا ذلك.. وهذا الفهم كان مبنيّاً على العقل الذي لا يسعنا تحديده ورسمه المنطقي الاصطلاحي، وإن كنّا جميعاً نتلمّسه ونعرف أنّ الفرد السفيه والأبله يفتقر إليه.

إنّ نور العقل هذا، هو حجّة الله على البشر، وعلى أساسه صار الإنسان مكلّفاً بالتكاليف العقليّة.. وذلك قبل وصوله حدَّ التكليف الشرعي.. والتكليف الشرعي موكول إلى وصول الإنسان البلوغ الشرعي، فيكلّف بالتكاليف العمليّة.. أمّا التكاليف العقليّة؛ فتجب على الإنسان الواجد لنور العقل بالتدريج.. فكما أنّ قبول نبوّة النبيّ وإمامة الإمام منوط باختباره على أساس مبنى العقل، فكذلك التكاليف العمليّة تجب على أساس التكاليف العقليّة.

إنّ أحد المستقلّات العقليّة: وجوب شكر المنعم، إذ كلّ إنسان يتقبّل ذلك بحكم العقل، وبعد تركه مخالفاً له.. فهذا تكليف عقليّ يتكرّس منذ أن يجد الفرد نور العقل، فيكون واجباً على الإنسان عقلاً..

ولعلّ أحد أهم مصاديق شكر المنعم: شكر الله المتعال، وذلك أنّ نعمته على الإنسان غير قابلة للقياس مع نعمة أيّ منعم آخر.. ولكن الإنسان الذي لا إحاطة له بإلهه وربّه ولا يعرف آداب ورعاية حرمة المقام والجلال الإلهي.. ترى كيف له أن يشكر ربّه، بحيث لا يكون ما يصدر عنه نوع إساءة أدب إزاء الله وانتهاكاً لحدوده وحرمته؟

هنا يدلّ العقل (باعتبار الرسول الباطني) الإنسان على الرسول الظاهري لله تعالى؛ ويذكّر بضرورة النبوّة (باعتبارها طريق الارتباط بين الإنسان وربّه).. والوظيفة الأخرى للعقل: اختبار ادّعاء مدّعي النبوّة.. وعلى هذا الأساس يكون لهذين الرسولين الإلهيّين (العقل والنبيّ) تناغم وانسجام، إذ الاثنان رسولا المرسِل الحكيم..

بعد هذه المقدّمات نقول:

أهمّ الأديان المعاصرة ثلاثة أديان: اليهوديّة والنصرانيّة والإسلام.

إنّ التديّن بأيّ دين، أي: قبول أيّ دين، مبنيٌّ على أساسٍ من اختبار مصادر هذا الدين وكتبه السماويّة.. وهذا ما ينبغي قياسه واختباره بضابطة العقل.

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2026-06-10]

أمّا المصادر الفعليّة لليهوديّة والنصرانيّة – في دائرة أصول العقائد، وهي أهمّ أصول عقائد الإنسان وأعمقها أصالةً، مثل التوحيد والنبوّة – طافحة بالمطالب المضادّة للعقل.

فالتوراة تعدُّ الله جسماً، جسماً في قالب بشريّ، وقد صارعه يعقوب النبيّ ليحظى منه بفرمان النبوّة، ولكنّ الله تمنّع عليه بادئ الأمر، ثمّ اضطرّ إلى الاستجابة وبارك له أمر نبوّته ليتخلّصَ منه.. هذه الأسطورة قد تضمّنتها التوراة بنسخها وترجماتها (العبريّة والعربيّة والفارسيّة والتركيّة و..) وقد قرأناها مباشرةً. فيما العقل يقول بأنّ الله ليس جسماً، ولا يعقل ولا يصحّ أن يكون الخالق من سنخ المخلوقات، بل يجب أن يكون غنيّاً مطلقاً، وإنّ غناه بالمعنى الجامع، ومطلقيّته تعني المعنى الكامل والخارج عن جميع الحدود (الخارجيّة والذهنيّة والوهميّة والفكريّة و...).

والدين القائل بأنّ لله ولداً؛ غير متطابق مع الأصول الكلّيّة العقليّة.. إذ العقل يقول بأنّ الحاجة للولد عجز وضعف، كما في البشر الذي يعاني منهما، فيما الله تعالى مبرأً عن هكذا قصورز ولذا؛ نجد العقل ينسجم ويقبل بالكلام الوارد في سورة التوحيد القرآنيّة: ﴿**لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾.

وفي باب النبوّة تقول التوراة: فكّرت ابنتا لوط النبيّ بعد طوفان نوحٍ النبيّ وغرق زرافات الناس، فكّرتا بتكثير النسل الإنساني.. فقرّرتا – خدمةً للبشريّة – أن تسقيا أباهما لوطاً خمراً، فلمّا شرب وسكر قاربتاه، فأنجبتا منه ذرّيّة.. والتوراة تصرّ على أنّ النبيّ داود وسليمان وكثيراً من الأنبياء؛ هم من أولاد ولدي لوطٍ النبيّ..

وهذا الرأي يتنافى العقل، إذ العقل يتقبّل كلام القرآن المجيد الوارد في باب الأنبياء: ﴿**إِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ**﴾ [ص / ٤٧] فهؤلاء مختارون من قبل الله الحكيم لمهمة هداية البشر، وكان لابدّ لهم أن يكونوا أفضل وأسمى من جميع أفراد أممهم، بمن فيهم صالحوهم وأخيارهم.. فيما الوصف التوراتي لهم وما نسبت إليهم التوراة من قبح لا يحطّ من منزلتهم إزاء صالحي أممهم، فحسب؛ وإنّما يجعلهم من أرذل أراذل أقوامهم..

٣ – المستقلّات العقليّة؛ أساس قبول الدين(٢)

يحكم «العقل» بأنّ الإنسان بحاجة ماسّة ودائمة إلى مرافقة حجّة الله؛ ليتعلّم منه ويأخذ عنه قوانين عبوديّته لربّه، ويرجع إليه في الاختلافات. وعلى هذا الأساس، يثبت أصل النبوّة، كما يمكن

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2026-06-10]

اختبار مدّعي النبوّة ومعرفة صدق أيّ المدّعين.. أي: أيّهم يتكلّم طبقاً للعقل وأيّهم لا، بمعنى: معرفة أيّهم يخالف كلامه العقل..

وحين قَبل العقل نبوّة مولانا وسيّدنا محمّد بن عبد الله عليه وآله الصلاة والسلام، فإنّه يقبل كونه آخر الأنبياء الإلهيّين.. ولكنّه يصل إلى السؤال أدناه: ماذا يمكن أن يُفعل لمرافقة حجّة الله، لا سيّما في مواضع الاختلاف؟

هنا يصل إلى أصل «تداوم الحجّة»، بمعنى أنّ البشر بعد النبيّ بحاجة إلى كسب الفيض من حجّة الله، ذلك أنّ تعاليم النبيّ يمكن أن تتعرّض إلى التحريف (في اللّفظ أو المعنى) فتظهر - تبعاً لذلك - فرق تدّعي جميعها التبعيّة للنبيّ..

وفضلاً عن هذا، فالحاجة المستديمة عند الإنسان إلى العبادة في مختلف الشؤون هي بحاجة أيضاً إلى إرشاد المعصوم.. وذلك أنّ البشر دائماً ما يتّكئون على المعرفة الاكتسابيّة، وهم في الوقت نفسه أسرى إلى نوازعهم ورغباتهم النفسيّة والمطامع الشيطانيّة فيهم، ممّا يعرّض معرفتهم المحدودة إلى الضغط والسؤال، فيساقون - على ضوء ذلك - إلى الهوى والرغبة..

ويقول العقل: إنّ وجود الحجّة الإلهي بشكل دائم على الأرض أمرٌ لا مناص منه، مع لزوم توفّر عدّة خصائص؛ منها: العلم الإلهي، والقدرة الإلهيّة، والعصمة من الأخطاء والذنوب، ليتسنّى بسط دين التسبيح والتقديس والتنزيه لله تعالى.. وهذا الحجّة يلزم وجوده الدائم في الأرض ليكن حجّة حقيقيّاً على أفراد البشر.

وبحكم العقل، فإنّ هذا الحجّة يجب أن يكون كما النبيّ منصوباً من قبل الله تبارك وتعالى، لا سيّما وأن الإنسان الكائن في ظلمات الأرض عاجز عن معرفة مبلّغ الإرادة الإلهيّة وكشفها بنفسه ثم تبليغها الآخرين.

وعلى أيّ حال؛ فإنّه ليس من دين في العالم المعاصر متطابق مع العقل؛ ما خلا دين التشيّع وليس ثمّ ارتباط مباشر مع عالم الألوهيّة إلّا من جهة الدين الإسلامي الذي يحمل الحجّة الربّانيّ رايته.. وكذا تلك المذاهب المبتدعة، يعوزها الاتصال مع المباشر مع الله؛ لافتقارها إلى الحجّة الدائم على الأرض.. كما أن الفرق مثل الزيديّة والواقفة والإسماعيليّة و.. لا تدعي الصلة بالحجّة المعصوم الحيّ المرتبط بالوحي.. وإنّما الشيعة الإماميّة الاثني عشريّة هم الوحيدون الذين يؤمنون بأنّ:

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2026-06-10]

- الأرض لا تخلو من حجّة أبداً.

- حجج الله (من آدم إلى الخاتم والأئمّة المعصومون) كانوا على الأرض وعاشوا فيها والحجّة خاتم الأوصياء ما زال موجوداً أيضاً فيها.

- والحجج لهم وجودهم الثابت إلى يوم القيامة.

والشيعة الأبرار يستندون في معتقدهم هذا إلى نصوص جمّة مثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿**إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ**﴾ [الرعد / ٧].

وقد أتبع رسول الله صلوات الله عليه وآله هذه الآية الشريفة عدّة أحاديث تصرّح بأنّه هو المنذر، وأنّ كلّ إمام معصوم - وأوّلهم أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام - منذر لقومه في عصره، بل إنّ جملة من هذه الأحاديث النبويّة الشريفة قد أوردت أسماء الأئمّة الحجج الأوصياء واحداً واحداً.. فهم الذين يوصلون نداء اللّاهوت إلى آذان الناسوتيّين، وهؤلاء هم الحجج الإلهيّون بعد النبيّ المصطفى إلى يوم القيامة على الأرض، وقد ورد في النصوص الشيعيّة: «**الحجّة قبل الخلق، ومع الخلق، وبعد الخلق، ولا تخلو الأرض من حجّة**» [الكليني، الكافي، ج١، ص١٧٧، ح ٤؛ ابن بابويه، كمال الدين، ص ١٣٦، ح ١].

بلى؛ إنّ الإمامة رمز خاتميّة نبوّة خاتم الأنبياء صلوات الله عليه وآله، ومن دونها لا يصحّ ولا يمكن الحديث عن خلود الإسلام في جميع الاتجاهات وفي جميع الأزمان والأماكن.

٤ - تفاوت درجات البشر(1)

خاض الفلاسفة في بحث مهم، وهو ما أدناه:

جميعنا نرى في هذا العالم أنّه تتمّ التضحية بأشياء وأمور لأجل أشياء وأمور أخرى.. دون صدور اعتراض من العقلاء على ذلك، بمعنى عدم مخالفته للعقل.. مثال ذلك:

أنّ جهداً شديداً يبذل من جهة الإنسان ليحصل على أنواع من الخضراوات والبقولات، كالبرسيم والحنطة والشعير.. فالجهد ينصب على اختيار قطعة الأرض والحرث وتوفير السماد واقتلاع الأعلاف والنباتات الفضوليّة الزائدة، ونثر البذور والسقي ومراحل وعمليّات أخرى، إلى أن يحرز الهدف منها.. وبعد كلّ ذلك؛ تُتناسى الجهود المبذولة لتقدّم كوجبات غذائية إلى الأغنام والأبقار لتأكلها.. وإلى هنا، ليس ثمّ عاقل يعترض على هذا الإنسان المجاهد على قطعه وحصده

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2026-06-10]

تلك النباتات وحرمانها حقّ الحياة - النباتيّة - إذ أن التضحية بالداني لأجل العالي عين العقل، مضافاً إلى أنّ العقلاء يعدّون قتل بقرة بداعي تناولها بضع أمنان من البريم أمراً معيباً قبيحاً، من حيث بطلان التضحية بالعالي لأجل الداني..

وفي المرحلة التالية.. ربما يضحّى بخروف أو بقرة لوجبة طعام لبعض أفراد الإنسان، وليس من عاقل يستشكل على هذه التضحية، إذ مرّة أخرى جرت التضحية بالداني لأجل العالي، وعكس ذلك يعتبر فعلاً معيباً قبيحاً وغير عقلاني، فلا يُضحى بالعالي لأجل الداني.

وهذا التفاوت مشهود أيضاً بين أعضاء بدن الإنسان.. فالدماغ أهمّ من اليد والرجل، ولذا؛ فإنّ الإنسان إن وقع من علٍّ، حرص على أن يتّخذ من يديه درعاً لئلّا يصاب برأسه، وإذا ما رُمي بحجر؛ اتّقى بكفّيه لئلّا يصيب وجهه وعينيه، لأنّ التضحية بالداني من أجل العالي عين العقل. وهذه السلسلة من التضحيات سارية في العالم، وهي محطّ قبول العقلاء.

وثمّ أصل فلسفي آخر، وهو: أنّ كلّ عالٍ سببٌ وعلّة في وجود الداني، وكلّ دانٍ مقدّمة لوجود العالي، أي: أنّ العالي غاية، والداني ذو غاية. وحسب العبارة الفلسفيّة؛ «غاية كلّ شيء فاعله» ووجود الداني حاصل ببركة العالي.. ونذكر مثالاً هنا:

إنّ العلف يوجد ببركة وجود الحيوان، فمن لم يكن له غنم أو بقر، لا يحضر العلف، والعلف إنّما هو مقدّمة لاستمرار حياة الحيوان، إذ من دون حياة الحيوان؛ لا يفكّر أحد بالعشب والعلف.. وهكذا يمكن القول: إنّ الحيوان خلق لأجل الإنسان، لأنّ الإنسان بالنسبة للحيوان؛ والحيوان بالنسبة للنبات في درجة أعلى...

وهكذا نلحظ التفاوت بين أفراد الإنسان في الدرجات.. إذ يُضحى بألف تلميذ لأستاذ واحد؛ دون العكس، لأنّ الأستاذ عالٍ والتلميذ دانٍ.. والإنسان الداني معلول، والمعلول يوجد ببركة الداني، ووجود المعلول منوط بوجود العلّة دون العكس..

وإنّ إنسانية الإنسان منوطة ومتعلّقة باعتداله إزاء أربع صفات أصليّة: الحكمة والعفّة والسخاء والشجاعة.. ومشكلة الأفراد العاديّين أنّهم قد يفرطون في بعض هذه الصفات، فهم بين إفراط وتفريط.. ففي ناحية الشجاعة مثلاً؛ يفرطون في الشجاعة إلى حدّ التهوّر، ويفرّطون في الخوف.. وكلا الحالتين سلبيّتان.. وكذا الأمر والحال في السخاء، حيث يفرطون (يسرفون) أو يفرّطون

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2026-06-10]

(يبخلون)..

وكلّ مَن يُوجد هذه الصفات بحدود الاعتدال الكامل، يسمّيه الفلاسفة: (الإنسان الكامل) وربما يعدّونه: مدبّر وزعيم عالم الطبيعة.. وحسب رأيهم؛ فإنّ النبيّ والإمام – أي: حجّة الله وخليفته في الوجود – هو ذلك الإنسان الكامل، وهو بالنسبة للبشر العاديّين؛ نسبة العالي إلى الداني، وهو مَن تصدق عليه الأصول السالفة الذكر..

ومن هنا؛ نردُ البحث أدناه: هل أرسل الله النبيَّ لنا؟ وهل حصلت بعثة النبيّ – هذا الصقر الصاعد إلى اللّاهوت وعقاب قاف الجبروت – في قفص الدنيا، فيتعرّض للعسر والألم والعذاب ليهدي العاديّين من الناس؟

كلّا؛ إذ الأمر ليس كذلك.. فهذا القول كما لو أرسل أستاذ شهير خارق الموهبة إلى قرية نائية ليدرس طلّاب الصفّ الأوّل الابتدائي.. إذ هذا عين الظلم وقد عُرّض له الأستاذ النابغة...

والحقيقة هي أنّهم جاؤوا بنا إلى هذه الدنيا لنكون وسيلة كمال الأنبياء والأئمّة.. وإيضاح هذا المنحى، فيما إن قلنا: الرياضة سبب كمال الإنسان، فإن كانت الرياضة حقّاً؛ كان الكمال حقّاً.. وإن كانت الرياضة باطلة، كان الكمال باطلاً..

وعلى أيّ حال؛ إنّ إلحاق الأذى بالنفس – عن طريق الصواب أو الخطأ – سبب لقوّة وتكامل الإنسان.. وهذا هو رمز الطاقة الاستثنائيّة للمرتاضين – ومنهم غير المؤمنين – ولدى ذلك، فإنّ واحدة من أهمّ الرياضات للحكماء؛ العيش بين الجهّال، وقد قال أحد الشعراء: «إذا صاحبت الروح لئيماً، كان لها العذاب الأليمُ».

والأنبياء هم الجواهر الإلهيّة وأساطين الحكمة.. ونحن أفراد البشر؛ الجاهلون الذين يعيش الأنبياء بين ظهرانينا، فيضطرّون إلى الرياضة فيتكاملون، وعليه؛ فقد خُلقنا من أجل الأنبياء لا العكس.. وطبعاً لدى كمالهم يمكن لنا أن نبلغ كمالاً ما.. فنحن بمنزلة جذع شجرة، وهم الثمرة.. فالشجرة تسقى لأجل ثمارها. لا من أجل جذعها وساقها.. والإنسان الكامل ثمرة، وسائر البشر شجرة.. فحين تسقى الشجرة لأجل ثمارها، تروى الأعشاب الطفيليّة أثناء ذلك، ولكنّها – الأعشاب – لم تكن علّة أصليّة لحظة أبداً، ولذا؛ فإنّ الطفيليّات من الأعشاب قابلة للتحمّل في فترةٍ ما، بحيث لا تحول دون نموّ الشجرة والثمرة، ولكنّها إذا حالت دون نموّهما..

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2026-06-10]

اقتُلعت ورميت إلى التنّور...

وعلى هذا الأساس؛ يمكن القول بأنّ الأرض قائمة ما دام الحجّة فيها، والبشر يواصلون الحياة؛ ما دام الحجّة فيهم، وإلّا؛ انتفت الفائدة من حياة البشر العاديين.. و: «**لولا الحجّة لساخت الأرض بأهلها**» [الطبرسي، الاحتجاج، ج ٢، ص ٣١٧]. و: «**لو بقيت الأرض بغير حجّة؛ لساخت بأهلها**» [الصدوق، علل الشرايع، ج ١، ص ١٩٨ - ١٩٩، ح ٢١].

لقد خلق الله تعالى آدم أبا البشر بسنين مديدة قبل خلقة الأرض، وجعله الحجّة، ثمّ خلق ذرّيته في الأرض.. وإن آخر فرد سيغادر الأرض هو الحجّة الإلهيّة.. [إذ بعد وفاته تبدأ أشراط الساعة وتتبدّى علامات القيامة الكبرى..

وهذه المباني المشيرة إلى ضرورة وجود النبيّ والإمام في الأرض، برهان قاطع على حقّانية دين الإسلام والقائل بسلسلة النبوّة المتّصلة إلى الوجود المقدّس لخاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم وبعد ختم النبوّة يبدأ جريان ووجود سلسلة الإمامة؛ إلى اثني عشر إماماً، بدءاً من أمير المؤمنين عليه السلام، وإنّه بعد استشهاد الإمام الحسن العسكري عليه السلام في سنة (٢٦٠ق) تمثّلت الإمامة بولده الإمام الحجّة المنتظر الذي ولد سنة (٢٥٥ق) وهو إلى الآن وحتّى يأذن الله تعالى بالظهور حيٌّ يرزق، ثمّ تكون الموجودات ذوات حياة ببركة حياته، وهو **الذي ببقائه بقيت الدنيا، وبيمنه رزق الورى، وبوجوده ثبتت الأرض والسماء**.

٥ - تفاوت درجات أفراد الإنسان[٢]

على أساس المباني الفلسفيّة، فإنّه يلزم لهذا العالم روح وقيّم وقيّوم، فيكون وجود العالم الكبير يكمل ويتمّ بوجوده.. فكلّ شيء يصل مقام الشيئيّة موكول إلى هذه الروح التي يسمّيها المناطقة «الفصل الأخير» والفلاسفة: «جوهر الشيء».. وليس شيءٌ بلا هذا الجوهر له وجود.. وشأنه في ذلك؛ شأن اللون بلا قماش، والحرارة بلا نار وشمس، والبرودة بلا ماءٍ وثلج.. فهذه الأشياء عرض لذلك الجوهر.. والجوهر بالنسبة للعرض كالمعنى بالنسبة للّفظ، والجوهر لابس والعرض لباسه.. وحياة البدن موكولة ومنوطة بأن يكون لها روح وقيّم وقيّوم، وما لم تكن الروح، مات البدن واضمحلّ.. بل إنّ الروح قد خُلق قبل خلق البدن، ثمّ كان معه، ثمّ سيبقى بعده.. فالبدن ميّت بلا روح.. ولكن الروح بلا بدن ذات وجود، كما أنّ اللّابس كان له وجود خاصّ قبل

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2026-06-10]

توفّر الملبوس.. واللّابس (الإنسان المغطّى باللّباس) يذهب به إلى الخيّاط ليخيط له لباساً مناسباً، ومع تمزّق اللّباس وصيرورته بالياً، فإنّ الفرد اللّابس يبقى كائناً بعد لباسه العتيق أو المرميّ.. ليلبس لباساً جديداً...

في البدء، خلقت روحنا، ثمّ بدننا خُلق.. وإنّ تعلّق الروح بالبدن كتعلّق رئيس البلاد بالبلاد، وتعلّق القبطان بالسفينة، أي: علاقة التدبير وإدارة الأمور.. فالبدن للروح، وليس الروح للبدن..

والإنسان الكامل (أو حجّة الله؛ كما يقول الدين) كما الروح لهذا العالم.. أي: أنّه سبحانه وتعالى قد خلقه [عليه السلام] قبل خلقه العالم الموجود.. وإنّ حقبة إقامة حجّة الله في هذه الدنيا كما اللّباس الذي يُلبس خلال فترة زمنية.. وبعد مغادرته عالم الدنيا يُستبدل له لباسه، فيلبس لباساً مناسباً لطبيعة عالمٍ آخَر، لأنّه باقٍ ببقاء الله عزّوجلّ.. فهو له مبدأ لأنّه مخلوق، ولكنّه باقٍ لا فناء.. لأنّه وجه الله الحقّ...

إنّ روح هذا العالم بمنزلة البدن لروح حجّة الله.. وبدن هذا العالم كما الجسم بالنسبة لجسم حجّة الله لأنّه حجّة الله.. والله الخالق لكلّ شيء عبّر عن هذا الأصل العقليّ الأصيل في الزيارة الجامعة الكبيرة بالتعبير أدناه: «**أرواحكم في الأرواح، ونفوسكم في النفوس**» [الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج ٢، ص ٦١٦] .

وحرف «في» ماذا يعني هنا؟ إن ذهبنا إلى المعنى الظاهريّ، لن يعني شيئاً خاصّاً، ولكنّه يُقصد به شيءٌ إذا ما كان ثمّ بشر عاديّون.. فمثلاً: اسمي أيضاً بين الأسماء وروحي بين الأرواح ولكنّ ما له أهمّيّة ما تعلّق بالنبيّ والإمام المعصوم.. فيكون.. روحه بين أرواح الآخرين كالروح في بدن الأرواح الأخرى... ونَفْسه مثل الروح في البدن؛ بين النفوس.. فالفيْئيّة هنا فيئيّة القيّميّة والقيموميّة.. وبعبارة أُخرى: روحكم - يا أهل البيت - قيّوم الأرواح، ونفوسكم قيّوم على النفوس.. وبقاء أجسامنا متعلّق بجسم حجّة الله.. فروحه أسمى من أرواحهم، وجسمه روح جسمي، ونَفْسه روح نفسي.. وأرواح أفراد الإنسان؛ مع ما تمتاز به من تمام اللّطف، كبدن لروحه..

لماذا؟ لأنّ جسم حجّة الله (النبيّ وأهل بيته المعصومون عليهم السلام) ليس من سنخ أجسامنا.. فأجسامنا حاصل التراب؛ سواء ما تضمّن نباتاً خارجاً من التراب، أو لحماً من حيوان أكل من

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2026-06-10]

ذلك النبات.. وكلّ ذلك استحال نطفة في صلب الواحد من آبائنا، ثمّ استقرّت في رحم الواحدة من أمّهاتنا.. هكذا هي المقدّمات التي خلقت منها أجسامنا.. ولذا كانت «كثيفةً» ولكنّ جسم حجّة الله تعالى (النبيّ والمعصوم) نقرأ عنه في الزيارة الجامعة الكبيرة:

«**خلقكم الله أنواراً؛ فجعلكم بعرشه محدقين (محيطين) حتّى منّ علينا بكم فجعلكم في بيوت أذن اللهُ أن ترفع ويذكر فيها اسمه**»...

ونقرأ في زيارات شريفة أُخرى:

«**وأشهد أنّك كنت نوراً في لأصلاب الشامخة والأرحام المطهّرة، لم تنجّسك الجاهليّة بأنجاسها؛ ولم تلبسك من مدلهمّات ثيابها**» [الطوسي، ج ٦، ص ١١٤] .

وهنا؛ ثَمّ مسألة مهمّة:

القديم هو من «لا أوّل له» ويقصد به الله وحده لا شريك له، دون غيره.. وإنّ جميع الممكنات حادثة، ليس في الحدوث الذاتي فحسب - في مقابل القِدَم الذاتي الذي يُعدّ تقدّمه وتأخّره مجرّد أمرٍ عقليٍّ اعتباريّ - بل بالحدوث الدهريّ الذي أوضحه الميرداماد، وهو الأقرب من الشرع والواقعيّات. فنقول: كان الله و لم يكن معه شيء، حتّى خاتم الأنبياء.. فلقد خلق الله عزّوجلّ خاتم النبيّين وأخرجه من كتم العدم إلى منصّة الوجود.. ثَمّ خلق منه أنوار الآخرين.. إذ الموجودات فيها الأسبق والسابق.. وإن أسبق الموجودات؛ خاتم النبيّين، ثمّ المعصومين الثلاثة عشر، ثمّ الأنبياء والملائكة وبقيّة الموجودات حسب المراتب..

إنّ المعصومين هم الباقون ببقاء الله تعالى.. فيما نحن الباقون بإبقاء الله سبحانه، وبين هذين الاثنين فرقٌ.. وقد جاء في القرآن المجيد: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**﴾ [الرحمن / ٢٦ - ٢٧].

فوجه الربّ باقٍ بعين بقاء الربّ ذي الوجه.. إذ الوجه بنفسه لا وجود له، وإنّما وجوده بذي الوجه.. والوجه معنىً حرفيّ، وذو الوجه معنىً اسميّ.. والحرف باقٍ ببقاء الاسم.. والوجه باقٍ ببقاء ذي الوجه..

لذا؛ فإنّ لدى الفناء الكلّيّ للدنيا وما فيها، ويعود الكلّ إلى الظلام الماهويّ.. يكون الزوال لكلّ الموجودات باستثناء الرسول الخاتم وابنته العظيمة وأمير المؤمنين والأحد عشر معصوماً من

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2026-06-10]

ذرّيتهم الطاهرة، إذ يبقون ببقاء الله عزّوجلّ.. أمّا أبداننا؛ فتتلاشى بعد الفناء، وتعود عن حالة التركيب إلى البساطة، ولكن أبدان أهل البيت عليهم الصلاة والسلام التي هي من طينة العليّين لن تتغيّر..

وهذه الإيضاحات تفصيل للمسألة السالفة حيث قلنا؛ حجّة الله روح للأشياء ولابسة لباس العالم، وهي جوهر لعَرْض البدن، كما اللّبّ بالنسبة إلى القشرة.. إذ مهمة القشرة وشأنها حفظ اللّبّ.. فالقشرة تنزع للوصول إلى اللّبّ.. ولذا؛ فإنّه لدى الوصول إلى لبّ اللّوز مثلاً، لا تبقى قيمة تذكر للقشرة.. وهكذا البدن إذا انتزعت عنه الروح؛ لزم أن يدفن تحت التراب.. والروح في بدن العالم؛ هو حجّة الله تعالى.. وعن الحجج الإلهيّين نقرأ: «**بهم تحرّكت المتحرّكات وسكنت السواكن**» [المجلسي، بحار الأنوار، ج ٩٩، ص ٥٤] .

المرحوم الشيخ الحرّ العاملي قد أورد في كتابه النفيس (إثبات الهداة) ما يقرب من (٣٠٠) حديث بعبارات مختلفة ولكن بالمضمون القائل: إنّ الأرض من دون حجّة الله وخليفته لا يمكن تصوّرها.. فيما الحجّة كائن قبل الموجودات الأخرى ومعها وبعدها.. وأنّ حجّة الله مخلوق محتاج بكلّه إلى الله.. مع أنّه عالٍ محتاج وأسمى منّا بدرجات لا متناهية..

٦ - البرهان على إمكان الأشرف:

من جملة المسلّمات المتعالية في الحكمة، أنّ الله تبارك وتعالى من ناحية الفياضيّة والفاعليّة غير متناهٍ.. بمعنى أنّ فيضه لا يُعدّ ولا يُحدّ، كما أنّ استعداد وقابليّة ولياقة الممكنات غير متناهية.. وفي هذه الصورة، لو أنّ كلّ الفيض الإلهي ظهر فجأة، لزم أن يُحدّ غير المتناهي بحدّ محدود، وهذا باطل ببداهة العقل.. وبالنتيجة، فإنّ فيضَ الخالق يصل الممكنات بالتدريج والتوالي، ولازم هذه المسألة وضع الممكنات في درجات ومراتب؛ ليصل إليها الفيض الأوّل والفيض الثاني والفيوضات المتتالية.. حيث الأوّل مقدّم على الثاني وهكذا... والفيض المقدّم أشرف وأعظم ممّا يليه من الفيض المؤخّر..

ويمثّل الفلاسفة لذلك بنور الشمس بالمضمون أدناه: لا يستولي ضياء الشمس فجأة على جميع الأشياء، وإنّما يملأ هذا النور الفضاء شيئاً فشيئاً.. وأوّل ما يبدأ؛ بالأشياء القريبة ثمّ يتسلّل إلى الأشياء الأخرى.. وطبعاً؛ إنّ كلّ شيء أقرب إلى الشمس تتصاعد حرارته ويقوى نوره.. وكلّ

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2026-06-10]

ما بعد الشيء؛ قلّت حرارته وخبا ضياؤه..

والمثال الآخر: المدفأة الموضوعة في الغرفة.. ففي البدء تدفئ محيطها المجاور والقريب منها.. ثمّ يسري الدفء إلى ما هو أبعد؛ شيئاً فشيئاً، وبالنتيجة يكون المحيط الأقرب أكثر دفءاً بالنسبة للمحيط الأبعد.. وهكذا هو الصوت الصادر عنّي - مثلاً - إذ يصل إلى من هو أقرب إليّ قبل وأفضل ممن هو أبعد عنّي.

أمّا وجود مخلوقات العالم، فلها تقدّم وتأخّر في الدرجة والرتبة؛ لا من حيث الزمان.. وكما أنّ سلسلة درجات الوجود تبدأ من الإنسان إلى الحيوان والنبات والجماد، فكذا هي الدرجات التي يتفاوت فيها أفراد الإنسان.. فالإنسان الأوّل يمثّل أوّل سطوع النور الإلهيّ، وهو أوّل مخلوق خلقه الله تبارك ذكره.. هو رسول الله محمّد المصطفى صلوات الله عليه وآله؛ وهو القائل لجابر بن عبد الله الأنصاري رضوان الله عليه حين سأله عن أوّل مخلوق لله سبحانه: «**ياجابر! أوّل ما خلق الله نور نبيّك، ثمّ خلق منه كلّ خير**» [المجلسي، بحارالأنوار، ج ١٥، ص٢٤، ح ٤٣] .

لقد خلق الله تعالى من نور أشرف الممكنات؛ النبيّ الأعظم وخاتم المرسلين نور أمير المؤمنين المقدّس وأبدعه.. ومن نورهما خلق نور الصدّيقة العظمى الزهراء البتول، ومن نورهم خلق أنوار الأئمّة الطاهرين.. ومن أنوارهم خلق أنوار بعض الأنبياء، ومن أنوارهم خلق أنوار بعض الملائكة؛ حسب درجاتهم.. ثمّ خلق من تلك الأنوار القدسيّة أنوار الصلحاء والمؤمنين.. إلى أن وصل الأمر إلى خلقة الموجودات البائسة الخسيسة واللّئيمة.. وهذه السلسلة تواصلت من الأشرف حتّى الألأم...

وهذا الفيض الإلهيّ يصل إلى هذه السلسلة من البشر، كما تقدّم الكلام بخصوص سطوع ضياء النور وحرارة المدفأة وصوت المتكلّم. ولذا؛ ترانا نشير إلى أنّ حجّة الله أشرف - بما لا يقاس ولا يتصوّر - من الإنسان العادي.. ومتى ما تقرّر أن يصل المخلوقات فيض ربّانيّ - وهو دائم الصدور، ولا يمكن تصوّر انقطاعه - فإنّه يصل حجّة الله بدءاً، ثمّ ينال أفراد الإنسان وغيرهم، كلٌّ حسب درجته ومرتبته.. ومعلوم أنّ درجات أشخاص مثل سلمان وأبي ذر وأصحاب سيّد الشهداء عليه السلام في هذه السلسلة ليست كدرجاتنا...

إنّ فيض الحياة، وفيض الرزق، وفيض الجود والكرم، وفيض الرحمة والمغفرة، إلى آخر الفيوضات

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2026-06-10]

الإلهيّة.. تصل الإنسان الكامل وولّي الزمان في البدء، ثمّ - منه - إلى سائر الآخرين حسب درجاتهم..

قال مولانا الإمام الهادي عليه السلام في الزيارة الجامعة الكبيرة:

«**بكم** - أهل البيت عليهم السلام - **فتح الله وبكم يختم**» [الصدوق، الفقيه، ج ٢، ص ٦١٥] .

«**إن ذُكر الخيرُ؛ كنتم أوّله وأصله وفرعه ومعدنه ومأواه ومنتهاه**» [نفس المصدر، ج ٢، ص ٦١٦] .

فهذا الذي هو مجرى الفيض الإلهي، ما دام موجوداً حيّاً على الأرض.. تبقى الحياة وتبقى الأرض وتبقى الخليقة.. وبناءً على هذا الإيضاح البرهاني يتجلّى ركن مذهب التشيّع لعليّ وآل علي عليهم الصلاة والسلام.. إذ العقل والاستدلال بهذا البرهان يتجلّى الوجود القدسيّ لخاتم الأنبياء وفضائله ومقاماته، وبالتبع هم آل بيته الأطهار..

والمسألة التالية هي أنّ هذه الأنوار المطهّرة التي تعيش في الأرض، كان لابدّ لها من هياكل جسمانيّة ليصل الفيض الإلهي إلى البشر.. وإيضاح ذلك بأن نقول:

لكي يصل الفيض من الفيّاض، فإنّ فاعليّة الفيّاض شرط، وكذا قابليّة المستقبِل للفيض شرط، فما لم تكن للمتكلّم قدرة على البيان، وما لم تكن للمستمع قدرة فهم المطلب.. فإنّه في كل حال؛ لن يتمّ انتقال المطلب.. فالكلام الشامخ للأستاذ السامي المرتبة لا يفهمه الطفل ذو الخمس سنين، ولابدّ من تيسير هذا الكلام ليستوعبه هذا الطفل.. والشمس بكلّ قابليّتها على الإضاءة فإنّ عيني لا تسعها رؤية قرصها ونورها.. ولابدّ له من أن يضرب هذا الجدار وذاك للانتفاع منه..

والله العليّ العظيم كامل وتام ومطلق في الفعّاليّة والفيّاضيّة، ولكنّ المتلقّي لهذا الفيض يجب أن تتوفّر فيه القابليّة على التلقّي.. وقد عدّ بعض الفلاسفة القابليّة من لوازم الماهيّة.. وهذا أمر غير صائب.. إذ الله تعالى هو الذي يهب الفيض والقابليّة على تلقّي الفيض، ولكن ينبغي أن تتوفّر السنخيّة بين هذين الأمرين ليصل الفيض إلى البشر.. ومن هنا كان دافع الكافرين إلى الاعتراض على بعثة النبيّ في هيكله البشري دون أن يكون المبعوث الإلهي ملكاً.. فردّهم الله سبحانه بالقول العزيز:

﴿**لَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ**﴾ [الأنعام / ٩].

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2026-06-10]

فالمتحدّث الحكيم ينظر إلى ظرفيّة وقابليّة المستمع، ليكون حديثه حديثاً مفيداً.

وقد روى الإمام المعصوم عليه السلام عن النبيّ الأكرم صلوات الله عليه وآله قوله الشريف:

«**إنّا معاشر الأنبياء؛ أُمرنا أن نكلّم الناس على قدر عقولهم**» [الكليني، الكافي، ج ١، ص ٢٣، ح ١٥] .

وكذا: «**ما تكلّم رسول الله بكنه عقله قطّ**...» [نفس المصدر].

فالنبيّ إنّما يتكلّم مع الناس بما تسعه عقولهم.. وهو لم يجد شخصاً يكلّمه بكنه ومستوى عقله هو صلوات الله عليه وآله.. وقد ورد في الروايات أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان المخاطَب الوحيدَ للنبيّ بدرجته..

لاحظوا المثال أدناه بدقّة:

ثَمّ شلّال بارتفاع أربع مئة متر.. وكانت تحته صخرة، فإنّها ستثقب أو تتشقّق.. أمّا إن كان تحتها إنسان، فإنّه عاجز مطلق العجز عن صعوده سباحةً.. بل لا ريب في أنّه سيموت.. فكان لابدّ من جعل الشلالات أُفقيّة أنهاراً لينتفع منها الناس والحيوانات والنباتات..

ولو لم يكن الحجّة الإلهيّة في قالب مادّيّ، لكان شعاع نوره بمقدار من القوّة؛ بحيث يستحيل النظر إليه؛ ناهيك عن أن ينتفع ويهتدى بعلمه وإرشاده...

لاحظوا! لو تقرّر لنا أن نكتسب الفيض من عالم غير مادّيّ وبصورة مباشرة، أو كان الله عزّ اسمه هو من يهدينا مباشرة.. و لم تكن ثَمّ حاجة إلى الأنبياء وواسطيّتهم.. إلّا إنّه بهذا الدليل صرنا محتاجين إلى واسطة في هذا الباب، مثل الأنبياء والأئمّة، يرسلون لبني البشر بقالب بشري ليتمكّنوا من الاستفادة منهم.. وها نحن عاجزون عن الانتفاع من الجنّ والملك أيضاً، فضلاً عن ذي المقام الأسمى الذي هو النبيّ والإمام..

وهذا هو حكم العقل.. الذي لم يستوعبه الشيخ أحمد الأحسائي وأتباعه، فقالوا بأنّ إمام العصر عليه السلام كائن في «عالم هورقليا» وهو عالم فوق الإقليم السابع، كما يذهبون بالتفصيل الذي ذكره الشيخ أحمد الأحسائي والسيّد كاظم الرشتي في رسائلهما...

إنّه كما عاش رسول الله وأهل بيته الاثناعشر من بعده - مع جميع مقاماتهم وفضائلهم السماويّة - على وجه الأرض، فإنّ إمام العصر؛ مولانا الحجّة المهديّ عليه السلام يعيش اليوم على وجه

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2026-06-10]

الأرض أيضاً.. وجميع الخلائق تنتفع بوجوده المبارك.

٧ - العبودية التامّة والعبد الكامل:

أحد الأُصول المسلّمة للعقل هو أنّه سبحانه وتعالى قد خلق البشر للعبودية والعبادة.. العبوديّة التي تنتج الترقّي وكمال البشر، وأنّه تعالى غنيٌّ عنهم وعن عبادتهم.. « **لا تضرّه معصية من عصاه، ولا تنفعه طاعة من أطاعه**» (نهج البلاغة، خطبة ١٩٣).

ونضرب لهذا مثالاً: الشمس في مقامها الشامخ ذات إشراق وتلألؤ.. انتفعنا منها أو لم ننتفع.. مدحناها أو لم نمدحها.. فالشمس تؤدّي دورها المرسوم لها، وهي في غنىً عن انتفاعنا بها.. ولكنّنا نحن المحتاجون إلى نفعها والانتفاع بها.. وإلّا توقّفت عجلة حياتنا عن الحركة..

إنّ الإقبال منّا على عبوديّة الله المتعال، بمعنى الاعتماد على حكم العقل.. فكما أنّ الإنسان في حياته الاجتماعيّة ملزم بقوانين اجتماعيّة دون استشعار لذلٍّ. إذ ليس من عاقل يدّعي الرزوح تحت مطرقة الذلّ إذا ما تبع القوانين الاجتماعيّة.. بل إنّ هكذا فرد يُعدّ عزيزاً محترماً حيث اختار بحرّيّة تامّة تحاشي بعض الإرادات الفرديّة. لئلّا تضطرب الحياة الاجتماعيّة العامّة.. وهكذا هي عبوديّة البشر؛ من هذا السنخ.. أي أنّ اعتماد حكم الله الحكيم الآمر الناهي بحكمة مطلقة بالغة دون المنفعة الشخصيّة، ودون وجود حاجة فيه سبحانه إلى مخلوقاته، ودون عجز وضعف فيه تجرّه إلى استعراض قدرته... إذ الخلائق كلّها هي العاجزة عن إدراك قدرته المطلقة.

إنّ الإنسان لدى عبوديته وعبادته يحظى بالقرب من الحقّ سبحانه.. وفي القرب هذا كمال أتمّ وجمال أعظم قد خُلق الإنسان لأجله.. وقد قال كتاب ربّنا الحكيم:

﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات / ٥٦] .

﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾ [البيّنة / ٥] .

فالله جواد، وقالوا في تعريف الجود: «الجود: إفادة ما ينبغي؛ لا لعوض ولا لغرض». ومثل هذا الجود منحصر بالله المتعال، حيث لا يريد إزاء جوده عوضاً ولا عائداً إلى ذاته المقدّسة، ولا هو سبحانه يستقصي. أو يستهدف غاية خارجة عن ذاته المقدّسة.. وهو عزّ اسمه جاد علينا بكمالات ليكملنا بها.. وإن طريق كمالنا عبوديّته وعبادته.

وهذه الكمالات غير المتناهية؛ من قبيل: العلم، والقدرة، والرأفة، والرحمة، والسلطنة،

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2026-06-10]

والسمعة، والأمن والأمان، والرفقة، والسلامة، والسيادة، والعفو، والجود والكرم.. و...

والمسألة المهمّة هنا؛ أنّ كلّ كمال له عبادته المخصوصة به.. ولإيضاح المطلب نضرب مثالاً:

إنّ تكريم شخص متشخّصٍ أمر محمود.. ولكنّ هذا التكريم يتفاوت بتفاوت واقع هذا الشخص المحترم، مثل العالم والتاجر والقائد العسكري ورئيس البلاد و.. بل إنّ إضفاء ألقاب التكريم ولحن الخطاب والمخاطبة تجاه كلّ واحدٍ من هؤلاء له خصوصيّته وشأنه بما يناسبه، حيث لا يسع إضفاؤه على غيره من هؤلاء الأشخاص النماذج.

إنّ تناسب الكلام مع المخاطَب من أهمّ عناصر حُسن البيان، وكلّما أتقن هذا التناسب وروعي، كانت درجة ذلك الأديب والحكيم المتكلّم أو الكاتب أرقى وأسمى.

ونقول بعد ذكر هذا المثال:

إنّ الله المتعال له شؤون وكمالات عديدة مختلفة؛ فهو العالم والمعلّم والسلطان والرفيق والشفيق والأنيس والحبيب والجليس والقهّار والمنتقم والشافي والغنيّ.. وإنّ العبوديّة إزاء كلّ واحد من هذه الشؤون وصورة الكمال.. له منهاجه الخاصّ به.. إذ لشفاء المريض، ينادى بـ «ياشافي». ولأداء الدين ينادى باسم: «ياغنيّ» وللصحبة والرفقة؛ تقرأ عبارة دعاء المشلول؛ حيث جاء فيه: «**ياشفيق يارفيق! فكّني من حَلَقِ المضيق واصرف عنّي كلّ همٍّ وغمٍّ وضيق**» [المجلسي، بحار الأنوار، ج ٩٢، ص ٤٠٠].

وللأنس به سبحانه؛ نقول كما هو الوارد في دعاء كميل: «**يانور المستوحشين في الظلم**».

فمن دعى وأدرك رمز هذه العبارة حقّاً، نراه يقتنص الفرصة ولا يفرط في اليقظة عند الثلث الأخير من اللّيل.. ولكنّ المؤسف فينا أننا لم نهبط في وادي المعرفة هذا.. وإنّ لحظة يستقرّ تجلّي اللّطف الإلهي في القلب، تعدل لذّتها عشرات السنين من العمر أو تفوقها..

أمّا إزاء تجلّي «**سيّد السادات، إله الآلهة، جبّار الجبابرة**» فالعبوديّة والتأدّب يأخذان منحىً رائعاً آخر، إذ فقري مرآة غناه تبارك ذكره، إذ يلقي في مرآة فقري وفاقتي صورةً عن جلاله وسيادته وجبروته.. فيظهر بهذا عظمته وسطوته..

وأقول أنا: «**ربِّ زدني علماً وعملاً وألحقني بالصالحين**» وطلبي هذا يعكس جهلي، إذ مرآة علمه المطلق ماثلة إزاء جهلي المطلق..

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2026-06-10]

وحين ينطلق في مسير العبوديّة، تكون روحه موضع تجلّي الصور الإلهيّة الربّانيّة. وهذا.. أحد معاني العبارة الشهيره القائلة: «**العبوديّة جوهرة: كنهها الربوبيّة**».

أمعنوا النظر في عبارة دعاء عرفة للإمام الحسين عليه السلام:

«**أنت الذي مننت، أنت الذي أنعمت، أنت الذي أحسنت... أجملت... أفضلت... أكملت... رزقت...**» [المجلسي، بحار الأنوار، ج ٩٥، ص ٢٢١]. وكلمات وعبارات بعد ذلك تزيد على الثلاثين من جملة الألطاف الإلهيّة وردت في هذا الدعاء الحسيني الشريف.. ثمّ يقول الداعي القاصر المقصّر - كما يعلّمنا سيّد الشهداء عليه السلام - عن نفسه: «**أنا الذي أسأت... أنا الذي أخطأت.. أنا الذي هممت.. جهلت.. غفلت.. سهوت..**».

ثمّ لاحظوا الوارد في مناجاة أمير المؤمنين عليه السلام في مسجد الكوفة: «**أنت المالك وأنا المملوك.. أنت العزيز وأنا الذليل.. أنت العظيم وأنا الحقير..**» [نفس المصدر، ج ٩١، ص ١١٠] إلى آخر المناجاة.

نعم؛ إنّ لذّة العبوديّة لذّة عجيبة حقّاً.. ومَن صار عبداً لا يهتمّ لرزقه؛ لأنّ الله تعالى قد وعده بالقول: ﴿**وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ**﴾ [الذاريات / ٢٢].

ولا يقطع رجاءه عند المشاكل: ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ**﴾ [الطلاق / ٣].

وقد حدث لي أن كنت في مدينة سبزوار ذات يوم، فوقعت لي مشكلة، فكتبت لأحد أساتذتي في مشهد رسالةً، فردّ عليّ مجيباً بتدوينه الحديث أدناه: «**خَفِ الله؛ يكفيك من كلّ شيءٍ**». ونصح أُستاذ تلامذته بجملة نصائح؛ منها: اخدموا إمام الزمان عليه السلام ثمّ لا تغتمّوا لشيء، فهو الكافل بأثر ممّا تتوقّعون. ولا ريب في أنّ هذا القول لا يعني تعطيل حياتنا، إذ أنّ البحث عن الرزق مسؤوليّة وتكليف، ولكن ضمن إطار قوله تعالى: ﴿**لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ**﴾ [الحديد / ٢٣].

لاحظوا المناجاة الخمسة عشر للإمام السجّاد عليه السلام، وتتبّعوا مظاهرها وتجلّياتها المختلفة وحالات الإنسان المتنوّعة: التائبين، الشاكرين، الخائفين، الراجين، الراغبين...

وقال الإمام زين العابدين عليه السلام في مناجاة المريدين: «**لقاؤك قرّة عيني، ووصلك مُنى نفسي، وإليك شوقي... يانعيمي وجَنّتي، ويادنياي وآخرتي**» [المجلسي، بحارالأنوار، ج ٩١، ص ١٤٧].

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2026-06-10]

قلنا فيما سلف: إنّ كلّ كمال وكلّ واحد من أسماء الله لهما عبادتهما المخصوصة، ولكنّنا لا نعرف لائحة هذه العبادة، ولكن ينبغي الحرص على أن يكون عبيداً كاملين في كلّ حال وحين، ليعلّمنا ربُّنا المتعال وحجّته علينا هذه اللّائحة والطريقة.. فهو - الحجّة - من يرى تلكم التجليّات الإلهيّة، وإزاء كلّ اسم ينير لنا سبيل الخشوع والعبوديّة الخاصّ به.. وهذا الأصل العقليّ عبّر عنه القرآن الكريم بقوله: ﴿**وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ**﴾ [الأنبياء / ٧٣].

هذه الآية المباركة وردت في باب حجج الله (الأنبياء والأئمّة) وقد مدحهم الله سبحانه باعتبارهم «عابدين» أي أنّهم العابدون الصادقون الكاملون بلا مغالاة في الكلام والتصوّر..

ولذا؛ فهم يعرفون طريق العبوديّة والعبادة ويعلّموننا به..

وهذه العلّة في تنوّع الأدعية المأثورة عن النبيّ الأكرم والأئمّة الأطهار صلوات الله عليهم أجمعين.. ويمكن تبويبها ضمن الآتي:

- التعقيبات؛ التي تقرأ عقيب الصلوات.
- أدعية الأيام (أيّام الأسبوع، أيّام الشهر، الأيّام المخصوصة).
- التعويذات.
- أدعية السرّ، وهي مفعمة بالمعارف، وإنّ فقرة وجملة واحدة فيها تفوق ما في (أسفار) ملّا صدرا و (شفاء) ابن سينا من حقائق.
- أدعية الحجُب؛ الحجُب المختلفة الواردة عن المعصومين عليهم السلام.
- أدعية القنوت؛ قنوتات المعصومين المتنوّعة.
- أدعية الأحراز؛ الأحراز المختلفة.

وكلّ واحد منها له أجواؤه الخاصّة به، و لا تكرار فيها، وقد أورد السيّد ابن طاووس في (مهج الدعوات) جوانب من هذه الحقائق.

ولا ينتهي المطلب عند هذه النقطة، فهناك باب آخر، وهو الصلوات المستحبّة، وكلّ منها يمثّل باباً في معرفه الله تعالى.. ولكم أن تطالعواكتاب (مفاتيح الجنان) ولو مرةً واحدة لتلمسوا هذه الحقيقة الناصعة.

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2026-06-10]

وعلى أيّ حال؛ ينبغي أن يكون ثَمّ عبد كامل في الأرض ليُرشد الناس إلى هذه التعاليم.. وهذا العبد الكامل إمّا نبيٌّ أو وصيُّ نبيّ، وحيث ختمت النبوّة بالحبيب المصطفى محمّد صلوات الله عليه وآله، فقد تابع أوصياؤه - الواحد بعد الآخر - عليهم السلام أداء مهمّة تعليم العبوديّة العبادة.. وإلى يومنا هذا، فإنّ القائم بالأمر هو بقيّة الله - أرواحنا فداه..

إنّ هذا الشأن مخصوص وخاصٌّ بحجّة الله، ولو أنّ الأرض خلت من هكذا عبد كامل، لأضحت الحياة ووجود الأرض عبثاً، لأنّ جميع الخلائق قد خلقوا للعبادة، ولا يرشد إلى طريق العبادة غير حجّة الله - المنصوب والمنصوص عليه من قِبل الله سبحانه - وفي هذا الموضوع، أضحت الإمامه كالنبوّة، فالأئمّة هم الحبل المتين الرابط بين الله وخلقه.. ولذا؛ فقد ورد الحديث المتواتر بين جميع المسلمين بألفاظه وأسانيده المتعدّدة عن رسول الله صلوات الله عليه وآله:

«**مَن مات بغير إمام؛ مات ميتةً جاهليّة**» [المجلسي، بحار الأنوار، ج ٨، ص ١٢، ح ١١].

أمّا عن تفصيل هذا المطلوب فنمرّ، ولكنّنا نشير إلى أنّه كما كان العيش في العصر النبويّ بلا طاعة لكلامه وبلا تبعيّة لهديه يبقي الإنسان في أجواء الجاهليّة (أي: الكفر والنفاق)، فإنّ التمرّد على النبيّ استدبار لإرشاد الإمام المنصوب من قِبل النبيّ، أي: المختار من قِبل الله عزّوجلّ.. فيبقى الإنسان إذ ذاك حبيس دائرة الكفر والنفاق.

وبعبارة أخرى؛ إنّ أداء الواجبات العمليّة (الصلاة والصوم والحجّ ونظير ذلك) ومن دون أداء الواجبات العمليّة (العقائد: التوحيد والنبوّة والإمامة وأصول الدين الأخرى) لا تبلغ بالإنسان إلى النجاة والسعادة.

وثَمّ ثلاثة إيضاءات في صحيفة المؤمن: التوحيد والنبوّة والإمامة، فمن تمسّك بهذه المطالب الثلاثة، دخل بلاد الإيمان، وهو إن ارتكب معصية، فإنّه يساق إلى السجن، ولكنّهم يتحمّلون مسؤوليته.. أمّا إن تمرّد على واحد من هذه المطالب الدينيّة، فإنّه مهما صدرت عنه من الخيرات والمبرّات، فسيطرد من بلاد الإيمان، ولن يعتبره الراعي واحداً من رعاياه.. ولذا؛ كان الإيمان إلى جانب العمل الصالح عنواناً مستقلاً بحدّ ذاته.. ولطالما صدح القرآن المجيد بالقول الشريف: ﴿... **آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ**﴾.

ما ذكرنا كان توضيحاً لقول الآية الجليلة: ﴿**يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ**﴾ [الإسراء / ٧١] وقد

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2026-06-10]

نقل السيوطي - المحدّث المخالف، الكبير عند المخالفين - حديثاً عن النبيّ الأكرم صلوات الله عليه وآله: «**ندعو كلّ أُناسٍ بإمامهم وكتاب ربّهم وسنّة نبيّهم**» [السيوطي، الدرّ المنثور، ج٤، ص١٩٤] .

ولكن إن سألنا السيوطي عن العمل بما نقل.. وعمّن هو إمام زمانه.. فإنّنا لن نتلقّى جواباً..

نشكر الله المتعال إذ هدانا للإيمان برسول الله وأئمّة الهدى ومولانا بقيّة الله أرواحنا لهم الفداء، وفي هذا جواب حقٌّ وقاطع إزاء السؤال المتقدّم.

والحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله...

المصادر

١ - الحويزي، عبد علي، نور الثقلين، قم، إسماعيليان (١٤١٥ق).

٢ - السيوطي، جلال الدين، الدرّ المنثور، قم، كتابخانه مرعشي نجفي (١٤٠٤ق).

٣ - الصدوق، محمّد بن عليّ بن بابويه، علل الشرائع، قم، مكتبة الداوري.

٤ - ـ، من لا يحضره الفقيه، قم، دفتر انتشارات إسلامي، (١٤١٣ق).

٥ - الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج على أهل اللّجاج، مشهد، مرتضى (١٤٠٣ق).

٦ - الطوسي، محمد بن حسن، تهذيب الأحكام، طهران، دار الكتب الإسلاميّة (١٣٦٥ش).

٧ - الكفعمي، إبراهيم بن علي، المصباح، قم، الرضي (١٤٠٥ق).

٨ - الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، طهران، دار الكتب الإسلاميّة (١٣٦٥ش).

٩ - المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار، بيروت، مؤسّسة الوفاء (١٤٠٤ق).

١٠ - النعماني، محمّد بن إبراهيم، كتاب الغيبة، طهران، مكتبة الصدوق (١٣٩٧ق).

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2026-06-10]